

العلوم العقلية عند ابنه خلدون

الدكتور بن بوهة أحمد

قسم العلوم الاجتماعية ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية -

جامعة جيلالي ليابس ، سيدي بلعباس

يُعدّ عبد الرحمان ابن خلدون أحد المفكرين العرب والمسلمين الذين وقفوا موقفا موضوعيا أمام أهمية العلوم العقلية ومنها المنطق ، ولهذا الاعتبار كان موضوع بحثنا حول المنطق والعلوم العقلية في المشروع الخلدوني، قاصدين من وراء هذا التقيب كشف الرؤية الخلدونية في هذا الملتبس من هذه العلوم ، ثمّ دوره في الحياة الفكرية والاجتماعية عند العرب والمسلمين ولذلك ضمنا خطوات تحليلنا فحص المباحث الآتية :

- موقع المنطق والعلوم العقلية عنده ، خاصة في مؤلفه " المقدمة " : والغرض منه كشف مواطن التفكير المنطقي في ثنايا أعمال ابن خلدون الاجتماعية والتاريخية.

- البحث في قيمة وأهمية علم المنطق والعلوم العقلية : إذ تجدر الإشارة إلى التصنيفات التي وضعها ابن خلدون لهذه العلوم.

- ثم أخيرا: عرض نماذج لتوظيفات خلدونية لهذه العلوم : وفي هذا نحن مضطرون لعرض أمثلة-ولو على الإيجاز- لبعض المفاهيم المنطقية المطبقة في " المقدمة ".

بناء على هذا الرسم الموجز ، نرى أن موضوع بحثنا سيحاول الإجابة على التساؤلات التالية :

ما المقصود بالعلوم العقلية وبالمنطق في المشروع الخلدوني ؟ ثم كيف كان موقف ابن خلدون من هذه العلوم ؟ وأخيراً ما هي المنهجية التي وظّفها في أعماله المعرفية خاصة في علم العمران ؟

لقد اعتمد ابن خلدون في كتابه "مقدمته" على منهجية تجريبية (تكمن في المعاينة المباشرة للحوادث الاجتماعية والعمرانية والسياسية) ومنهجية أخرى استنتاجية (تقوم على القياس والمقارنة النظرية) ، وهي منهجية تعتمد على ملاحظة الحقائق التاريخية والاجتماعية في الشعوب التي عاش بينها ومقارنتها مع الماضي وحقائق شعوب أخرى ودراسة وتحليل العلاقات والقوانين والعادات بين الشعوب وعوامل تطورها واختلافها¹.

يعتمد منهج ابن خلدون على الأحكام التقريرية الموضوعية ، " فلا يتحدث عمّا يجب أن يكون كما فعل أفلاطون، ولا يتحدث عن منهجية تتّبع الخير والشرّ في ظواهر الاجتماع ، فتستحسن شيئاً وتدعو إليه ، وتستهجّن شيئاً وتدعو إلى اجتنابه ، مثل ما فعل ابن مسكويه في تهذيب الأخلاق والغزالي في إحياء علوم الدين والماوردي في كتابه الأحكام السلطانية"².

احتوت "مقدمة" ابن خلدون ستين(60) فصلاً ، بيّنت محتوياتها فضل علم التاريخ وطبيعة العمران وطبيعة تطوّر الإنسان من البدو والحضر وأشكال الصراع والتغلّب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم. لقد خصّص ابن خلدون فصولاً كثيرة لمختلف العلوم الدينية والطبيعية والإلهية والعلوم العقلية ، وهذه الأخيرة أصنافها أربعة وهي : علم المنطق والعلم الطبيعي والعلم الإلهي (الذي يدرس الجانب الروحاني) والعلم الرابع هو علم المقادير ويضم الهندسة والحساب (أرتمطيقا) و الموسيقى وعلم الهيئة (مواقع الأفلاك وحركتها)³.

إن تصنيف العلوم الواردة في المقدمة " مع ذكر تاريخ كل علم و أمّهات الكتب الواردة فيه ، و تدقيق المناهج ، و الاطلاع على ضُعب بعض العلوم وصحة البعض الآخر منها ، لدليل واضح على مدى تشبع ابن خلدون بالروح العلمية الشمولية بكل ما تقتضيه من عقلانية وتعميم ومنهجية " ⁴.

يُعتبر ابن خلدون أن نشأة العلوم وتقدمها ظاهرة مُهمّة في العمران ، وأرقى ما تراها في المدن الكبرى والأمصار المزدهرة ، ثم " يرى أن العلوم العقلية ومنها الفلسفة لا تفي بغرض الفلاسفة من إيصالهم إلى الحق ، وهو مخالف للشريعة من وجوه ، وليس له إلا ثمرة واحدة هي شحذ الذهن في ترتيب الأدلة ، لذلك نراه يُوصي المقبل على علم الفلسفة بالاحتراز ، وبأن لا ينكبّ عليه قبل أن يتشبع من الشرع والفقه ، لئلا يذهب ضحية لمغالطات الفلاسفة " ⁵.

صنّف ابن خلدون العلوم أيضا بمعيّار آخر، حيث قسّمها إلى عقلية ونقلية ، " وبعدها أخرج ابن خلدون الغيبات من نطاق العقل جعل في مكانها شؤون المجتمع ، لأنه وجد أنها من طوره ، وهو في موقفه من الغيبات مثالُ الفقيه المتحفّظ ، كذلك هو في نظره إلى الانسانيات مثالُ العالم الدقيق . فهو لم يتابع المتكلمين في إبطال ناموس العلة جُملة ، انتصارا للشريعة، بل منَع الحكم في الأمور الغيبية للعقل ، وقرّر صلاحية العقل للنظر في ظواهر الطبيعة وشؤون الإنسان على الإطلاق ، وأثبت القواعد التي وضعها العقل وكشفها البحث ، واسترشد بها في معرفة الحقائق وفي الانتفاع بها . فنشأ عن ذلك أن أدخل التاريخ ، وهو سجلّ الشؤون الانسانية في نطاق العلم العقلي ، وأخضعه لقواعد العلم الطبيعي ، لاسيما ناموس العلة " ⁶.

صنّف ابن خلدون العلوم أيضا من حيث طبيعتها ومن حيث فائدتها ، " فالعلوم الآلية (أي العقلية) هي اللغة والحساب والمنطق والتي تُتخذ وسيلة لإتقان

سِوَاهَا من العلوم المفيدة بالذات ويُشترط في تعلّمها الإيجاز (أي في العلوم الآلية) والتخفيف بقدر المنفعة حتى لا تضيع عمر الإنسان ولا تكون عائقاً أمام طلب العلوم العقلية=الشرعية (علوم غائية) وفيها يجوز الإسهاب استدراكاً للمنافع" ⁷.

ارتبطت نظرة ابن خلدون للمنطق بالتطورات التاريخية والثقافية للساحة الإسلامية، فلم تكن نظريته واحدة مستقرة، حيث ارتبطت مع الطوائف الفكرية الحاصلة في الأمة وحاجاتها، "و لأن صناعة المنطق الذي تُسَبَّر بها الأدلة وتُعتَبَر بها الأقيسة لم تكن حينئذ ظاهرة في الملة، ولو ظهر منها بعض الشيء فلم يأخذ به المتكلمون لما لبسته للعلوم الفلسفية المابينة للعقائد الشرعية بالجملة، فكانت مهجورة عندهم لذلك، لكن حين ظهرت صناعة المنطق في الملة وقويت وقرأ الناس المنطق وفرّقوا بينه وبين العلوم الفلسفية بأنه قانون ومقياس للأدلة فقط، وقَعَ "تقويم" و: "إصلاح" طريقة المتقدمين من حيث منهجها وحيث مضامينها والمقصود بالمتقدمين هم: علماء السنة الذين واجهوا كلاً من الإمامية والمجسّمة والمعتزلة" ⁸.

ولم يكتفِ ابن خلدون فقط بأساسات العلوم، بل راح يفتش في فروعها، وتشعباتها، "وإذا زدنا في التدقيق رأينا أن صاحب المقدمة قد أحصى كل هذه المعارف المجاورة لعلم العمران وعرف كيف يعزلها واحدة واحدة، آخذاً عليها قبل كل شيء جانبها المعياري الأخلاقي، وفساد مناهجها التي بقيت منحلة، تنطرق إلى المسائل بكيفية عرضية" ⁹.

يعترف ابن خلدون كباقي علماء الإسلام وحتى اليونان أن صناعة المنطق - أو "العلوم العقلية" كما ذكرها - ليست من اختصاص قوم على قوم: "وأما العلوم العقلية التي هي طبيعية للإنسان من حيث أنه ذو فكر فهي غير مختصة بجملة

، بل يوجد النظر فيها لأهل الملل كلهم ويستوون في مداركها و مباحثها و هي موجودة في النوع الإنساني منذ كان عُمُر الخليقة" ¹⁰.

بدءاً من هذا الفصل - الذي يعرض فيه العلوم العقلية - يُحدّد ابن خلدون الوظيفة الحقيقية للمنطق الذي يعتبره أحد العلوم العقلية الأربعة : " فهو علمٌ يعصم الذهن عن الخطأ في اقتناص المطالب المجهولة من الأمور الحاصلة المعلومة ، وفائدته تمييز الخطأ من الصواب فيما يلتمس الناظر في الموجودات وعوارضها ليقف على تحقيق الحقّ في الكائنات نفياً وثبوتاً بمنتهى فكره" ¹¹.

يذهب ابن خلدون إلى أهمية علوم العقل ووظيفتها العلمية والعملية ، خاصة منها علم الكلام ، " فالكلام (أي علم الكلام) باعتبار منهج الاستفادة، حجاجٌ تقوّى به عقائدُ الإيمان ويُضعف به ما يُخالفها ، إنه من هذه الجهة الحجاجُ عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والتماسُ حُجّة عقلية تعضدُ عقائد الإيمان ومذاهب السلف فيها وتدفع شبه أهل البدع عنها " ¹² . يُتابع ابن خلدون مسار علم الكلام وتقويمه ثم توظيفه في جهة المضامين حيث يرى أنه " تمّ فعلاً العدول عن بعض المواد العقلية التي استخدمت مع المتقدمين إلى مواد عقلية أخرى عُدت أنسب لتأمين العقائد الإيمانية وتقعيدها ، وقد استمدت هذه المواد العقلية المعدول إليها من المجال التداولي العام القريب إلى المجال التداولي الخاص بالعقائد الإسلامية، من مجال الإلهيات والطبيعيات الفلسفي ، لقد كان الكثير من هذه المواد العقلية مقتبس من كلام الفلاسفة في الطبيعيات والإلهيات " ¹³ ، وفي كل الأحوال كانت نظرة ابن خلدون إلى مجال ووظيفة العلوم العقلية متميزة تُعبّر عن وجهة نظره الخاصة به ، حيث " يرى ابن خلدون ضرورة استبعاد العقل والمنطق والفلسفة في الموضوعات الغيبية ، وذلك يارجاع لكل موضوع أداة معرفة ، فكما أن الألوان تُدرك بالبصر دون اللمس، وأن الأصوات تُدرك بالسمع دون البصر ، فكذلك الأمور الإلهية ، حيث وَجَد أن الفلاسفة قد اعتمدوا في إقرار حقائق علمهم على

غير الوسيلة اللائقة ، فقد نشدوا الحقائق الروحية بالعقل، وحكموا فيها بالمنطق ، فكان من ذلك الشطط الفاضح الذي ارتكبه في أصول فلسفتهم الغيبية ، فالروحيات برأيه ليست من طور العقل " ¹⁴ .

لكن في كل هذا، كيف نلمس أو نكتشف مكانة وممارسة المنطق عند ابن خلدون؟

لقد نشأ "صاحب المقدمة " في تربية دينية واشتغل بعلوم القرآن والحديث النبوي وكانت له نظرة بقضايا الفقه ، خاصة ما تعلّق منها بالجانب الاجتماعي، كان يُلمّ بالجانب التصوري الصّرف بالمنطق، ثمّ وظّفه توظيفاً عقلياً في تفسير حركة التاريخ ومسار تطوّر المجتمع خاصة في مسألة " المُلْك والخلافة " و" تطوّر العمران "، وعليه فقد اعتبر ايف لاكوست " أن كتاب العبر هو الكتاب الذي يَسْمَح بالانتقال من الشّكل الخارجي للتاريخ إلى حقيقته الفعلية وإلى خصائصه الداخليّة " ¹⁵ .

وظّف ابن خلدون مسائل منطقية أخرى في أعماله التاريخية و الاجتماعية ، منها مسألة القياس بالشاهد على الغائب ، إذ له فائدة وهي معرفة أسباب الظواهر و بناء القانون العلمي .

يقول ابن خلدون عن المناطق الذين يستعملون القياس المنطقي لدراسة الظواهر الاجتماعية : " أنهم اعتادوا في حياتهم العلمية أن يغوصوا على المعاني (المعارف الكلية المجردة عن معطيات الواقع) فيتزعموها من المحسوسات ويجرّدوها في ذهنهم أمورا كلية عامة وقد دأبوا أن يطبقوا هذه الكليات العامة على السياسة وغيرها من شؤون المجتمع ولهذا نجدهم يفشلون فيها فشلا ذريعا " ¹⁶ ، ويرى ابن خلدون " إن هناك من العلوم ما يخضع لمنطق أرسطو كعلم الهندسة والحساب وما أشبه، ومنها ما لا يخضع له كعلم الاجتماع. ففي رأيه أن المعرفة الاجتماعية

يجب أن تكون مستمدة من المحسوس ولاصقة به ، فإذا كثر فيها الانتزاع والبعد عن المحسوس كانت غير مأمونة العواقب " ¹⁷ ، ثم إن دراساتهم أهملت جانبا منطقيا مُهمًا في العلم هو الاعتناء بالمشخصات للوقائع الموضوعية الخارجية من حوادث الظواهر واعتنائهم بالجانب الذهني فقط، وهو ما يُعرض نتائجهم إلى عدم اليقين .

استخدم ابن خلدون القياس كقاعدة من قواعد منهجه للاستدلال على صحة آرائه الاجتماعية والبرهنة على قوانينه العمرانية التي كوَّنت الدعائم الأساسية لِعِلْمِهِ الاجتماعي الذي استحدثه ¹⁸ . غير أن ابن خلدون لم يعتمد كغيره على المنطق الأرسطي الصوري الذي أشار إليه في مقدمته ، " وإنما يحتفظ لنفسه بخطة منهجية انفرد بها، أقامها على قواعد واضحة إحداها القياس بالتمثيل ، أي القياس بالشاهد على الغائب الذي تتكون منه الوقائع التاريخية التي حدثت في الماضي " ¹⁹ ، وهكذا عمل ابن خلدون على ممارسة المفاهيم المنطقية بكيفية منفردة وذكية تجعل المتبع لأعماله لا يلاحظها بكيفية سريعة ومباشرة* .

¹ - ابن خلدون ، المقدمة ، تحق: خليل شحادة ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت لبنان ، ط1 ، 2003 ، ص ، 07 .

² - حسن الساعاتي ، علم الاجتماع الخلدوني، قواعد المنهج، دار النهضة العربية، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1972 ، ص ، ص ، 1 و 2.

³ - المرجع نفسه ، ص ، ص ، 475 و 476.

⁴ - عبد المجيد مزبان، النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون ، ديوان المطبوعات الجامعية و المؤسسة الوطنية للكتاب ، الطبعة الثانية ، 1988 ، ص ، 64.

⁵ - الفلسفة الإسلامية وأعلامها ، إعداد وتحقيق الدكتور يوسف فرحات ، التسويق : الشركة الشرقية للمطبوعات ، الناشر ترادكسيم شركة مساهمة سويسرية ، جنيف ، الطبعة الأولى ، 1986 ، ص ، 230.

⁶ - المرجع نفسه ، ص، 214 .

-
- ⁷ - المرجع نفسه ، ص ، ص ، 231 و 232 .
- ⁸ - هو النقاري ، منطق الكلام ، من المنطق الجدلي الفلسفي إلى المنطق الحجاجي الأصولي ، دار الأمان للنشر والتوزيع ، الرباط ، الطبعة الأولى ، 2005 ، ص ، ص ، 132 و 133 .
- ⁹ - عبد المجيد مزيان ، النظريات الاقتصادية عند ابن خلدون ، مرجع سابق ، ص ، 65 .
- ¹⁰ - ابن خلدون ، المقدمة ، ص ، 475 .
- ¹¹ - المرجع نفسه ، ص ، 475 .
- ¹² - هو النقاري ، منطق الكلام ، من المنطق الجدلي الفلسفي إلى المنطق الحجاجي الأصولي ، مرجع سابق ، ص ، 49 .
- ¹³ - المرجع نفسه ، ص ، 134 .
- ¹⁴ - الفلسفة الإسلامية و أعلامها ، مرجع سابق ، ص ، 213 .
- ¹⁵ - ايف لاكوست ، العلامة ابن خلدون ، منشورات دار ابن خلدون ، بيروت ، 1974 ، ص ، ص ، 188 و 189 . نقلا عن خليل أحمد خليل ، مستقبل الفلسفة العربية ، مرجع سابق ، ص ، 347 .
- ¹⁶ - علي الوردي ، منطق ابن خلدون في ضوء حضارته و شخصيته ، مرجع سابق ، ص ، ص ، 64 و 65 .
- ¹⁷ - المرجع نفسه ، ص ، 66 .
- ¹⁸ - حسن الساعاتي ، علم الاجتماع الخلدوني ، قواعد المنهج ، مرجع سابق ، ص ، 139 .
- ¹⁹ - المرجع نفسه ، ص ، 140 .
- * - ويبدو من هذا أن ابن خلدون كان يؤمن بوجود ثلاثة أنواع من المنطق :
- أولاً - المنطق الكشفي وهو الذي يصلح للبحث في الأمور الإلهية والروحية وما أشبه .
- ثانياً - المنطق العقلاني وهو الذي يصلح لبحث الأمور القياسية كالهندسة والحساب وما أشبه .
- ثالثاً - المنطق الحسي وهو الذي يصلح لبحث الأمور الاجتماعية والسياسية وما أشبه .
- أنظر : علي الوردي ، منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته ، مرجع سابق ، ص ، 66 .